دراسات

الشيخ جعفر السبحاني

استاذ الدراسات العليا في الفقه والاصول في الحوزة العلمية بقم

أهل البيت (ع) المرجع العلمي والفقهي بعد الرسول (ص)

كانت للنبي الأكرم (ص) رئاسة دينية تامّة في إدارة دفّة الحكم.

فهو من جانب كان يدير الجيوش، ويسدّ الثغور، ويقيم الحدود، ويقسّم الفيء بين المسلمين، ويقضي بينهم. إلى غير ذلك من الأمور الّتي لها صلة بالأمور الدنيوية.

ومن جانب آخر كان يقوم بأمور لها صلة بالأمور المعنوية:

أولاً: يبيّن الأحكام الشرعية كلية وجزئية. ويجيب على الحوادث المستجَّدة التي لم يبيّن حكمها في الكتاب ولا في السنّة الموجودة.

ثانياً: يفسّر القرآن الكريم فيبيّن مجملاته، ويقيّد مطلقاته، ويخصّص عمومياته إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى رفع إبهامات الكتاب.

ثالثاً: يرد على الشبهات والتشكيكات التي يلقيها أعداء الإسلام من مشركي مكة المكرمة واليهود والنصارى بعد الهجرة.

رابعاً: يصون الدين من أي محاولة تحريفية. ومن أيّ دسّ في التعاليم المقدسة.

ولا ريب انّ من كان يقوم بمثل هذه المسؤوليات، يورث فقده وغيابه من الساحة، فراغاً هائلاً في الحياة الاجتماعية، وثغرة كبرى في القيادة لا يسدّها الاّ

إخلاف من يتحلّى بنفس المؤهلات الفكرية والعلمية التي كان النبي الأعظم (ص) يتحلّى بها ما عدا خصيصة النبوة وتلقي الوحي.

ومن الخطأ أن نتهم النبي (ص) - والعياذ بالله - بانّه قد ارتحل من دون أن يفكّر في ملء تلك الثغرات المعنوية الحاصلة برحيله.

وهذا ما يسوقنا إلى الفحص في كلمات الرسول الأعظم حتّى نتعرف على من عيّنه الرسول لملء هذه الثغرات.

فإذا راجعنا إلى أحاديث النبي (ص) نقف بوضوح على انّه (ص) قد سدّ هذه الثغور بإخلاف من جعلهم قرناء الكتاب وأعدا له، وأناط هداية الأمّة بالتمسك بهما.

وها نحن نذكر الشيء القليل الّذي هوكنموذج من كلماته الكثيرة في ذلك المجال.

١. روى ابن الأثير الجزري في جامع الأصول عن جابر بن عبدالله، قال:

رأيت رسول الله (ص) في حجّة الوداع يوم عرفة وهوعلى ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

٢. وأخرج مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم، قال:

قام رسول الله (ص) يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، وحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثمّ قال:

أمّا بعد: ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فاجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أوّلهما: كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله ورغب فيه.

ثمّ قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.[1]

٣. أخرج الترمذي في صحيحه عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: رأيت رسول الله (ص) في حجّة يوم عرفة على ناقته القصواء يخطب فسمعته، يقول: يا أيها الناس إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي.(٢)

٤. أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود إلى السماء والأرض وعترتي أهل بيتي، وانّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.(٣)

وهذا الحديث المعروف بحديث الثقلين رواه عن النبي أكثر من ثلاثين صحابياً، ودوّنه ما يربوعلى ثلاثمائة عالم في كتبهم في مختلف العلوم والفنون، وفي جميع الأعصار والقرون، فهوحديث صحيح متواتر بين المسلمين، وقد عين النبي (ص) ببركة هذا الحديث من يسدّ هذه الثغرات ويكون المرجع العلمي بعد رحيله وليس هوإلاّ أهل بيته.

من هم أهل البيت؟

وأما من هم أهل بيته الذين هم أحد الثقلين، وأشار إليهم سبحانه في قوله:«**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً**»(٤). فقد عرّفهم النبي (ص) في مواطن متعددة بل كان له (ص) عناية وافرة بتعريفهم لم ير مثلها إلاّ في موارد نادرة.

أولاً: صرّح بأسماء من نزلت الآية في حقّهم، حتّى يتعين المنزول فيه بإسمه ورسمه.

ثانياً: قد أدخل جميع من نزلت الآية في حقّهم تحت الكساء ومنع من دخول غيرهم.

ثالثاً: كلّما خرج إلى الصلاة كان يمر ببيت فاطمة (ع) عدّة شهوراً، ويقول:

الصلاة أهل البيت «**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً**»ولنذكر لكلّ موطن نموذجاً:

أما الأولّ: أخرج الطبري في تفسير الآية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ص) نزلت الآية في خمسة: فيّ وفي علي (ع) وحسن (ع) وحسين (ع) وفاطمة (ع) «**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً**».

وقد رويت في هذا المجال روايات فمن أراد فليرجع إلى تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي.

وأما الثاني: فقد أخرج السيوطي عن ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن عائشة قالت: خرج رسول الله غداة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود فجاء الحسن والحسين (ع) فأدخلهما معه، ثمّ جاء علي فأدخله معه، ثم قال: «**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً**».

ولولم تذكر فاطمة (ع) في هذا الحديث فقد جاء في حديث آخر، حيث روى السيوطي، وقال: أخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه بن سعد، قال: نزل على رسول الله الوحي فأدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت ثوبه، قال: اللهم إنّ هؤلاء أهلي وأهل بيتي.

وفي حديث آخر جاء رسول الله (ص) فأخذ فاطمة ومعه حسن وحسين، وعلي حتّى دخل فأدنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً كلّ واحد منهما على فخذه ثمّ لفّ عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم، ثمّ تلا هذه الآية:«**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً**».

وأما الثالث: فقد أخرج الطبري عن أنس انّ النبي (ص) كان يمر ببيت فاطمة (ع) ستة أشهر كلّما خرج إلى الصلاة، فيقول الصلاة أهل البيت «**إنّما**

يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً».[٥]

اعتراف أئمة المذاهب بأفقهية أهل البيت (ع)

إنّ كثيراً من علماء أهل السنة - قديماً وحديثاً - اعترفوا بأفقهية أئمة أهل البيت (ع)، فها نحن نذكر هنا شيئاً قليلاً من كثير.

روى ابن عساكر في تاريخه في ترجمة السجاد (علي بن الحسين (ع)) عن أبي حازم انّه قال: ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين وما رأيت أحداً كان أفقه منه.[٦]

وقال الشافعي: انّ علي بن الحسين، أفقه أهل البيت.[٧]

وقال عبدالله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم كأنّه صبي بين يدي معلمه.[٨]

وقال أبوحنيفة: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق (ع) .[٩]

ونقل الإمام الشافعي في رحلته: انّه سمع من مالك قوله للرجل الّذي أجاب على مسائله:

قرأت - أوسمعت - الموطأ؟ قال: لا.

قال: فنظرت في مسائل ابن جريح؟ قال: لا.

قال: فلقيت جعفر بن محمد الصادق؟ قال: لا.

قال: فهذا العلم من أين لك؟[١٠]

قد خرجنا بالنتيجة التالية:

انّ النبي (ص) قد ارتحل وقد خلف الثقلين لترجع إليهما الأمة في حلّ معضلاتها ومشكلاتها، وانّه عيّن المقصود من أهل بيته وأشاد بهم في مواقف مختلفة وعرفهم للأمة بيد انّ هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو:

تراث أئمة أهل البيت

ان أهل بيت النبي (ص) وعترته الطاهرة قد ارتحلوا فأين تراثهم وعلومهم حتى ترجع إليها الأمّة. هب انّ النبي (ص) تعبّدنا بالرجوع اليهم والتمسك بأحاديثهم وكلماتهم فأين أحاديثهم وعلومهم حتى ترجع إليهم؟

والجواب عنه واضح، وهوانّ تراث أئمة أهل البيت (ع) وأحاديثهم ومعارفهم تتمثل في الأمور التالية:

الأول: كتاب علي

فقد كان لعلي كتاب خاص باملاء رسول الله (ص) وقد حفظته العترة الطاهرة (ع) وصدرت عنه في مواضع كثيرة ونقلت نصوصه في موضوعات مختلفة، وقد بث الحرّ العاملي في موسوعته الحديثية، أحاديث ذلك الكتاب حسب الكتب الفقهية من الطهارة إلى الديات ومن أراد فليرجع إلى تلك الموسوعة.

وقال الإمام الصادق (ع) عند ما سئل عن الجامعة فقال: فيها كلّ ما يحتاج الناس إليه وليس من قضية إلاّ فيها حتى أرش الخدش.

وكان كتاب علي مصدراً لأحاديث العترة الطاهرة يرثونه واحداً بعد آخر وينقلون عنه ويستدلون به على السائلين.

وهذا هو أبو جعفر الباقر (ع) يقول لأحد أصحابه - أعني حمران بن أعين - وهويشير إلى بيت كبير: يا حمران إنّ في هذا البيت صحيفة طولها سبعون ذراعاً بخطّ علي (ع) واملاء رسول الله (ص) لوولّينا النّاس لحكمنا بما أنزل الله لم نعد ما في هذه الصحيفة.

وهذا هوالإمام الصادق (ع) يعرّف كتاب علي (ع) بقوله: فهوكتاب طوله سبعون ذراعاً إملاء رسول الله (ص) وخط علي بن أبي طالب

(ص) بيده، فيه والله جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة حتّى انّ فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة.

ويقول سليمان بن خالد: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: انّ عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعاً إملاء رسول الله (ص)وخطّعليّ (ع) بيده، ما من حلال ولا حرام إلاّ وهوفيها حتّى أرش الخدش.

ويقول أبو جعفر الباقر (ع) لبعض أصحابه: يا جابر إنّا لوكنّا نحدثكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنّا نحدّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله (ص).(١١)

وقد كان علي (ع) أعلم الناس بسنة الرسول (ص) وكيف لا يكون ذلك، وهويقول: إنّي إذا كنت إذا سألت انبأني وإذا سكت ابتدأني.

وقد كان يصدر عن ذلك الكتاب امام بعد إمام، وهذا هوولده الإمام الحسن السبط (ع) ويصف كتاب علي(ع).

انّ العلم فينا ونحن أهله، وهوعندنا مجموع كلّه بحذافيه، ومنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة حتّى أرش الخدش الاّ وهوعندنا مكتوب، بإملاء رسول الله وخطّ علي بيده.

وقال الإمام زين العابدين (ع) لرجل شاجره في مسألة فقهية يا هذا لوصرت إلى منازلنا لأريناك آثار جبرئيل في رحالنا، أيكون أحد أعلم بالسنة منّا.

وقال الإمام أبوجعفر الباقر (ع) للحكم بن عتيبة:

اذهب أنت وسلمة وأبوالمقدام، حيث شئتم - يميناً وشمالاً - فوالله، لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل.

وقال (ع) لسلمة بن كهيل والحكم: شرّقا وغرّبا، لن تجدا علماً صحيحاً إلاّ شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت.

إلى غير ذلك من كلمات أئمّة أهل البيت (ع) والّتي تعرب عن علمهم بالسنّة والكتاب، وانّهم أعرف الناس بمواقع الكتاب والسنّة.

الثاني: الصحيفة السجادية

هذه الصحيفة المعروفة بالصحيفة السجادية أوزبور آل محمد من مظاهر علوم أهل البيت (ع) وهي خالدة على جبين الدهر، وأسانيدها إلى الإمام متسلسلة متضافرة بل متواترة. وهناك وراء اتصال الأسانيد شيء آخر وهوانّ فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها وعلومضامينها وما فيها من أنواع التذلل لله تعالى والثناء عليه، والأساليب العجيبة في طلب عفوه وكرمه والتوسّل إليه أقوى شاهد على صحّة نسبتها إليه وانّ هذا الدرّ من ذلك البحر وهذا الجوهر من ذلك المعدن، وهذا الثمر من ذلك الشجر، مضافاً إلى اشتهارها شهرة لا تقبل الريب. وتعدد أسانيدها المتصلة إلى منشئها، فقد رواها الثقات بأسانيدهم المتعددة المتصلة إلى زين‌العابدين (ع).

الثالث: رسالة الحقوق

انّ للامام علي بن الحسين (ع) رسالة معروفة باسم رسالة الحقوق، أوردها الصدوق في خصاله بسند معتبر، كما رواها الحسن بن شعبة في تحف العقول مرسلة، وهي من جلائل الرسائل في أنواع الحقوق، يذكر الإمام فيها حقوق الله سبحانه على الإنسان وحقوق نفسه عليه، وحقوق أعضائه من اللسان والسمع والبصر والرجلين واليدين والبطن والفرج، ثمّ يذكر حقوق الأفعال، من الصلاة والصوم والحجّ والصدقة والهدي التي تبلغ خمسين حقاً آخر حقّ الذمة.

الرابع: رسالة الإمام الرضا (ع) في الفرائض والسنن

روى المحدثون انّ المأمون بعث الفضل بن سهل إلى الرضا (ع) فقال: انّي أحبّ أن تجمع لي من الحلال والحرام، والفرائض والسنن فانّك حجة الله على خلقه ومعدن العلم، فدعا الرضا (ع) بدواة وقرطاس وقال للفضل اكتب:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

«حسبنا شهادة أن لا إله الاّ الله أحداً، صمداً لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً»... الخ.

والرسالة مطبوعة في كتاب تحف العقول عن آل الرسول.(١٢)

الخامس: رسالة الإمام الهادي (ع)

روى المحدثون عن الإمام الراشد الصابر أبي الحسن علي بن محمد (ع) رسالة في الردّ على أصل الجبر والتفويض وإثبات العدل والمنزلة بين المنزلتين، وقد نقلها بنصها أبي شعبة الحراني في تحف العقول.(١٣)

هذه الرسائل هي المدونة من قبل الأئمة (ع) أنفسهم وهناك رسائل أخرى بأقلامهم لم نذكرها روماً للاختصار.

وأمّا ما روي عنهم ودونها أئمة أهل الحديث عبر القرون فحدث عنه ولا حرج ونشير إلى بعضها.

السادس: نهج البلاغة

انّ كتاب نهج البلاغة من أعرف الكتب وأشهرها عند الفريقين، وهويتضمن خطب الإمام علي بن ابي طالب (ع) وكتبه وكلماته القصار قام بجمعها الشريف الرضي (المتوفّى عام ٤٠٦).

وقد حذف الأسانيد وجاء بالمتون لاشتهار صدورها عن علي (ع)، وقد قام

غير واحد من الأصحاب بالاستدراك على ما نقله الشريف الرضي، فذكروا خطباً ورسائل كثيرة كما استخرج بعضهم أسانيد نهج البلاغة، من الكتب المؤلفة قبل الشريف الرضي، وقد قيل في حقّه: انّه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

السابع: أربعمائة مصنَّف لأربعمائة مصنِّف

انّ أئمة أهل البيت (ع) قد ربوا جيلاً كبيراً من الفقهاء والمحدثين، فدوّنوا ما وعوه عنهم في كتبهم المعروفة بأربعمائة مصنّف ولم يزل بعضها موجوداً إلى الآن بهيئتها ووضعها.

غير انّ كثيراً منها قد انتقل موادها إلى الأصول المؤلفة على يد علماء الشيعة في الأعصار المتأخّرة وهي بين جوامع أوّلية كالمحاسن لأحمد بن محمد بن أبي خالد البرقي (المتوفي ٢٧٤) ونوادر الحكمة لمحمد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمي (المتوفّى ٢٩٣) وكتاب الجامع لأحمد بن البزنطي (المتوفّى ٢٢١ هـ) وكتاب الثلاثين للاخوين الحسن والحسين ابني سعيد بن حماد الأهوازي.

وبين جوامع ثانوية كـ «الكافي» للشيخ الكليني (المتوفى ٣٢٩ هـ)، و«من لا يحضره الفقيه» للمحدث الخبير أبي جعفر الصدوق (المتوفى ٣٨١ هـ) و«التهذيب» و«الاستبصار» للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفّى ٤٦٠ هـ).

وبين جوامع متأخرة كـ «الوافي» لمحمد بن محسن الفيض الكاشاني (المتوفّى ١٠٩١ هـ) و«وسائل الشيعة» للحرّ العاملي (المتوفّى ١١٠٤ هـ) و«بحار الانوار» لمحي السنة الشيخ محمد باقر المجلسي (المتوفّى عام ١١١١هـ).

فهذه الجوامع وغيرها التي لم نشر إليها بغية الاختصار قد احتضنت علوم أهل البيت (ع) في مختلف المجالات، ومن أراد أن يتمسك بالثقلين فهذا هوكتاب الله، وهذه هي سنة رسول الله (ص) الّتي نقلها أئمّة أهل البيت (ع) عنهم.

وهناك نكتة جديرة بالإشارة وهي انّه إذا كان أئمّة أهل البيت (ع) مطهرين من الرجس حسب تنصيص الكتاب، والمرجع العلمي بعد رحيل الرسول (ص) وقرناء القرآن واعداله بنفس رواية الثقلين، إلى غير ذلك من سمات ومواصفات فلماذا غفل اخواننا أهل السنة عن الرجوع إليهم والاستضاءة بأنوارهم وركوب سفينتهم حتى ينجوا من الغرق.

والعجب انّهم رجعوا إلى كلّ صحابي وتابعي وكلّ إنسان يتسم بالسلفية ومع ذلك لا نرى انّهم يتمسكون بأحاديث أئمة أهل البيت (ع) إلاّ نزراً قليلاً لا يذكر.

فهم طرقوا كلّ باب حتى باب مستسلمة أهل الكتاب كعب الاحبار ووهب بن منبّه إلى غير ذلك ولم يطرقوا باب أئمة أهل البيت (ع).

نسأله سبحانه أن يلمّ شعث المسلمين ويرزقهم توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد.

الهوامش

١ – صحيح مسلم: ٢ / ٣٢٥

٢ – سنن الترمذي: ١٩٩

٣ – مسند أحمد: ٣ / ١٤.

٤ – سورة الأحزاب، الآية ٣٣

٥ – وللوقوف على مصادر هذه الروايات لاحظ تفسير الطبري: ٢٢ / ٥ – ٧ والدر المنثور: ٥ / ١٩٨ – ١٩٩، والروايات تربوعلى أربع وثلاثين رواية، ورواها من عيون الصحابة: أبوسعيد الخدري، أنس بن مالك، ابن عباس، أبوهريرة الدوسي، سعد بن أبي وقاص، واثلة بن الاسقع، أبوالحمراء أعني هلال بن حارث، ومن أمهات المؤمنين عائشة وأمّ سلمة. ورواه من أصحاب الصحاح: مسلم في صحيحه: ٧ / ١٢٢ – ١٢٣ والترمذي في سننه، ولاحظ جامع الأصول لابن الأثير: ١٠ / ١٠٣

٦ – سير اعلام النبلاء: ٤ / ٣٩٤

٧ – شرح نهج البلاغة لابن الحديد: ١٥ / ٢٧٤

٨ – حلية الأولياء

٩ – تهذيب الكلمات: ٥ / ٧٩

١٠ – رحلة الامام الشافعي: ٢٥.

١١ – قد جمع العلاّمة المجلسي ما ورد من الأثر حول كتاب علي في موسوعته بحار الأنوار: ٢٦ / ١٨ – ٦٦ تحت عنوان باب جهات علومهم وما عندهم من الكتب، الحديث ١٢، ١، ١٠، ٢٠.

١٢ – تحف العقول: ٣٠٦ – ٣١١

١٣ – تحف العقول: ٣٣٨ – ٣٥٢